

## المرأة في الأدب الجزائري المعاصر

### أحلام مستغانمي

وذلك البؤس الذي يجره الرجل معه من الطفولة الى الفترة حتى الرجولة : دون أن يعرف كيف يجب أن تكون علاقته مع هذا الكائن الغريب الذي هو « المرأة » . عندما كتب محمد ديب في قصة ( رقصة الملك ) « La danse du roi » : « لم يكن الاب عندنا غير ذلك الرجل الذي حبلت منه أمنا عرضا » ، كانت هذه الجملة تأكيداً لكلامه قاله رضا حوحو لحماره منذ ثلاثين سنة ، عندما سأله هذا الحمار عن المرأة : فأجاب حوحو : « كن مرتاحاً من هذه الناحية : فلا وجود للمرأة في بلادنا » . وعندما تساءل الحمار متعجباً : « عجباً ! تعيشون بدون نساء ؟ وكيف تتناسلون ؟ » .. طمأنه حوحو قائلاً : « قلت لدينا آلات للنسل نحتفظ بها في بيوتنا .. » .

ولكن هذه الجملة التي جاءت في كتاب محمد ديب لا تحمل هذا المعنى وحده : فهي تحمل أيضاً تعبيراً عن طفولة دمرتها مآسي الأم : وجعلت الطفل فيها يتساءل عن نوع العلاقة التي يمكن أن تربط أمه بأبيه .

وهذا الموضوع كثيراً ما توقف عنده الكتاب الجزائريون . وهو الذي يشكل المحور الرئيسي لكل كتابات رشيد بوجدره ومحمد ديب . والكتاب الأخير لمحمد العالي عرعار « الطموح » وكذلك رواية اللازا للطاهر وطار .

في كتابات بوجدره مثلاً نجد صورة طفولة محطمة، مدمرة .. ومدنسة أيضاً . ذلك أن كل أوضاع الأم تنعكس على هذا الطفل الذي يتحمل وحده في الظل كل المآسي التي تمر بها أمه .. وهكذا فإن زواج أبيه من امرأة ثانية بموافقة مرغمة من أمه جعلت هذا الطفل يتحمل وحده كل المأساة ويثور ضد أمه .. كما يثور ضد أبيه . ويضع كل هواجسه في هدف واحد : كيف يمكنه أن يصبح عشيق زوجة أبيه ؟ وبعدما نجح في ذلك أصبح يريد اغتصاب كل بنات عمه وكل القربيات اللواتي يأتين لزيارتهم بما فيهن أخته من أبيه .. وخالته أيضاً !

حتى سنوات قريبة ، كان الرجل الجزائري لا يجرو على مناداة زوجته باسمها . وإذا توجه إليها بالحديث فهو لا يناديها بغير ( يا امرأة ) . أما إذا اضطر الى ذكرها أمام رجل كافر فهو لا ينسى أن يضيف الى كلمة « المرأة » التعبير الشعبي ( حاشاك ) أي « أجلك الله » . ان المعاملة السيئة التي عانت وتعاني منها المرأة الجزائرية تصل قسوتها في بعض المناطق الجزائرية ، بما فيها العاصمة ، الى حد أن الاطفال لا يجروون على لفظ كلمة ( أمي ) خارج البيت ويكتفون بتعويضها بكلمة ( المدار ) عند الحاجة .

ففي رواية ( قرية الاسفوديل ) « La village des asphodèles » لعلي بومهدي يصف لنا الكاتب الوضع السيء للمرأة داخل العائلة عندما يطلب الكاتب من أبيه يوم رحيله الى أوروبا أن يسمح لأمه بتناول الغداء معهم ، فيجيبه الاب : « ان أمك هي التي لا تريد أن تأكل معي ! » .

وهكذا بينما يجلس الاب ومعه أولاده الذكور حول الطاولة : فان مكان المرأة هو في المطبخ لتأكل وحدها بقايا الصحن . ستقول الأم لابنها بعد ذلك : « لقد نعددت منذ زمن بعيد أن آكل وحدي لدرجة أنني لم أعد قادرة اليوم على ابتلاع اللقمة في حضور والدك » .

هذا المشهد سنجد في رواية ( التخليق ) « La Repudiation » لرشيد بوجدره و ( النفقة ) « La chrysalide » لعائشة لمسين و ( القبرات الساذجة ) « Les allouettes naïves » لآسيا جبار .

وهذه الوضعية لا تزال قائمة في واقع كثير من العائلات الجزائرية حتى اليوم ، حيث تعيش المرأة خارج عالم الرجال الذي تقرر فيه كل التفاصيل التي لا يؤخذ برأيها فيها .

ان هذا الاحتقار الذي تتعرض له المرأة داخل العائلة نفسها يفسر لنا وضعها السيء داخل المجتمع ، وكذلك تلك الصورة المحطمة التي يقدمها لنا الاديب الجزائري عند حديثه عن المرأة الجزائرية .

وهذا المشكل الذي يعتقد البعض انه لا يخص الا « نصف المجتمع الآخر » هو أبعد من أن يكون كذلك ، ما دام خلف هذا المشكل تتمثل أزمة « المجتمع الرجالي »

وبعدما حقق ذلك الطفل معظم هواجسه أصبح  
اخيرا رجلا . ولكن لينتبي في مصحح عقلي . بعد ان دفن  
اخاذ الاكبر الذي مات سكيراً لينسى هو ايضا  
مأساة امه .

ان هؤلاء الاطفال الذين يكبرون فجأة دون حب  
ودون حنان ، داخل عائلة غالباً ما تكون مشتتة ،  
سيجرون خلفهم الى الابد صورة تلك الام المهزومة والتي  
تتعلق بهم كآخر أمل لها في الحياة . . . وهؤلاء الاطفال  
سيجدون أنفسهم ذات يوم كبطل « الطموح » او ابطال  
محمد ديب امام استحالة بناء علاقة زوجية طبيعية  
ما دامت تلك الام تشدهم اليها بمأساتها ، وما داموا  
عاجزين عن قطع حبل السرة الذي يربطهم بالام ويجعلهم  
غير قادرين على اكتشاف المرأة - الزوجة .

ولكن كيف يمكن لرجل أن يفارق اما لا يعرفها  
جيدا ليعيش مع امرأة لا يعرفها أبدا ؟

ان هذا الوضع يشرح لنا الغموض القائم في  
علاقات الامومة والعلاقات الزوجية داخل الادب  
الجزائري . فاذا كانت صورة الزوجة غالباً ما تكون  
باهتة لاسباب اجتماعية نفسية وادبية معقدة ، فان  
صورة الام التي من المفروض أن تكون أوضح هي أيضا  
غارقة في الغموض والتناقضات .

ان ام عمر في « البيت الكبير » لمحمد ديب هي  
امرأة قاسية قوية الشخصية ، عصبية وذات سلطة .  
وهي لا تشبه في شيء الام الخاضعة والطبعة التي  
يقدمها لنا رشيد بوجدر في كتاباته . وهذان النوعان  
من الامهات لا يشبهون نوع الام عند مولود فرعون او  
مولود معمري . ويصبح الشبه أبعد عندما يتعلق الامر  
بالام عند جان عمروش الذي تظل عنده كأننا مقدسا ،  
بينما تصبح عند كاتب ياسين جزءا من الوطن وتاريخه ،  
لذلك فصورتها قابلة لكل التناقضات والاحتمالات .

وان شرح هذه الظاهرة يتعدى الانتاج الادبي  
للكتاب ليدخل في حياتهم الشخصية ونوع العلاقة التي  
كانت تربطهم بأهمهم ، فلقد كان لكل هذا دور في تحديد  
نوعية الام التي سيقدمها لنا الكاتب فيما بعد .

ويمكننا ان نقول اجمالا ان صورة الام في الادب  
الجزائري ، تتراوح بين التقديس والتدنيس . واذا كنا  
هنا لن نتوقف عند تقديس الام لانه امر يكاد يكون طبيعيا  
ومنطقيا عند البعض ، فان صورة هذه الام المدنسة لا بد  
أن تسترعي اهتمامنا . ولضيق المجال سنكتفي بتقديم  
نموذج صغير عن هذه الصورة في كتاب « التخليق »  
لرشيد بوجدر ، أولا لخصوصية صورة الام في هذا  
الكتاب ، وثانيا لان مؤرخي الادب في أوروبا يعتبرون  
هذا الكتاب الذي صدر سنة 1969 اهم حدث ادبي  
عرفته الجزائر منذ ظهور « نجمة » لكاتب ياسين  
سنة 1956 .

ان اول شيء يلفت النظر في هذا الكتاب هو الجو  
الجنسي الذي يفرقك فيه الكاتب منذ اول صفحة ،  
فارضا عليك صورا ومفردات جنسية ، ان كانت في نظر  
الكاتب جزءا من الواقع ، فهي في نظر اي قارئ عادي  
بذاءة لا يمكن أن ينحدر اليها كاتب طبيعي . يكفي أن  
نقول في هذا المجال ان القصة تحمل ست حالات شذوذ  
جنسي . وخمس حالات اغتصاب ، وثلاث حالات عهر . .  
اما عدد المرات التي ذكر فيها الكاتب جسد المرأة  
بصراحة ووقاحة لا توصف فلا يمكن أن تعد . ونحن هنا  
لا نناقش الكاتب الا على مستوى اللغة . وفي هذا  
المجال يمكن أن نقول ان الروائية آسيا جبار استطاعت  
في روايتها الرائعة « القبريات الساذجة » ان تنقل لنا  
عدة مرات تفاصيل العلاقة الجنسية بين نفيسة ورشيد  
وبين غيرهما من الابطال دون اباحية ، وكذلك دون حياء  
مزيف . ولقد منع أسلوبها الانثوي الانيق القارئ من  
الاصطدام بالصور التي كانت تنقلها اليه ، بينما يبدو  
وكان بوجدره كان يبحث عن هذا الاصطدام بل ويتعمده  
أساسا في كل كتاباته . . بما اننا نجد أنفسنا في كتابه  
الثاني « ضربة الشمس » مباشرة ومنذ الصفحة الاولى  
في مرحاض امام وضع جنسي غريب يفتصب فيه بطل  
القصة ( وهو في مصحح عقلي ) احدى الممرضات  
بطلب منها ! . .

واذا عدنا الى كتابه الاول « التخليق » فأكثر ما  
يصدمننا فيه هو هذه « الشجاعة » التي تمتع بها الكاتب  
ليستبيح عدة مرات جسد امه ، ناقلا لنا تارة تفاصيل  
علاقتها الجنسية مع والده . . . وتارة أخرى تفاصيل  
هذا الجسد نفسه . . . وأكثر من هذا ، فانه في فصل  
آخر يتحدث عن امه بهذه الطريقة : « انبا امرأة مطلقة ،  
لا تصل الى النشوة الا بواسطة يدها . . . او بمساعدة  
نانا قطتها !! » .

ان مثل هذا الكلام وحده كاف ليجعل من الكتاب  
حدثا ادبيا ، خاصة اذا عرفنا ان الكاتب لا يكتب الا عن  
سيرة ذاتية . والحقيقة انه كان يمكن أن نعتبر هذه  
الجملة دفاعا عن وضع المرأة المطلقة وشرحا لأزمتهما  
الجنسية ضمن بقية الازمات التي يجرها عليها الطلاق ،  
وحينذاك سنعجب بهذه الالتفاتة الانسانية لامرأة قلتما  
حكم عليها من وجهة انسانية ، ولكن جو الكتاب العام ،  
كما سبق أن قلنا ، يجعل مثل هذا الاحتمال بعيدا .

اذا كانت أزمة البطل في هذه الرواية هي المعاملة  
السيئة التي تتعرض لها امه من طرف ابيه ، فان عيب  
هذه القصة ، كما هو عيب معظم القصص التي عالجت  
هذا الموضوع ، الهروب امام الواقع وعدم مساعدة الام  
على تكوين شخصية جديدة او على مواجهة الاب مواجهة  
صريحة . وربما كان محمد العالي عرعار هو القاص  
الوحيد الذي وقف بطله في « الطموح » منذ الطفولة

وحتى النهاية الى جانب أمه وحاول معها أن يبحث كل الحلول التي يمكن أن تحررها من سلطة الاب . ولقد كان في التحاقهما معا بصفوف جيش التحرير حرية كافحا من أجلها معا كل بطريقته واستحقاها معا أيضا .

ان هذا الموقف يكاد يكون نادرا في روايات المغرب العربي بصورة عامة . ونحن نكاد لا نجد الا في رواية انقاص المغربي ادريس شرايبي ( أمي الحضارة ) « La civilisation ma mère » عندما يساعد الابن امه على اكتشاف الحضارة والتخلص من حياتها القديمة . وينتج عن ذلك انقلاب كامل في حياة الاثنين ، وهكذا ... بينما تنتهي قصص مولود معمري ورشيد بوجدره بالهروب الى أوروبا أو بالانتحار ، كما في « ضربة شمس » لبوجدره .. أو بالجنون كما في « التخليق » للكاتب نفسه ، فان بطل شرايبي سيظل مدهوشا أمام التغيرات التي طرات على حياته منذ أن أصبح بينه وبين أمه تلك العلاقة الجديدة .

ان الموقف نفسه يتكرر في رواية عائشة لمسين « النفقة » . ولكن الكاتبة أرادت أن تكون ( فائزة ) هي التي تساعد زوجة أبيها على التطور بدل أن يكون ذلك الدور موكولا لابنها مولود .

وإذا كان الرجل في الادب الجزائري يظل عاجزا عن اتخاذ موقف واضح من الأم ، فان ضياعه يكون أكبر عندما يتعلق الامر ببقية النساء . فهو لا يرى أبدا كيف يجب أن يتعامل مع زوجته أو عشيقته أو زميلته فسي الأسهل أو رفيقته في النضال ...

ولهذا نجد الادب الجزائري محشوا بالتصرفات الناطقة تجاد المرأة . فكثيرا ما يتعامل الرجل مع زوجته وكأنها أخته كما في ( التلميذ والدرس ) « L'élève et la leçon » لمالك حداد ، أو في « La collire oubliée » لمولود معمري . ثم يعود فيخلط بينها وبين أمه كما في « الطموح » للعالي . أو تصبح عنده مجاهدة قبل أن تكون زوجة كما في ( رصيف الازهار لا يجيب ) « Le quai aux fleurs ne répond plus » لمالك حداد . أو في ( الطلاس ) « Tal'sman » لمحمد ديب . أو تصبح عنده مجرد خادمة كما في معظم الروايات .

أما إذا كانت هذه المرأة رفيقة في النضال ، فهو يحدث أن يعتبرها ملكا خاصا به وليس للثورة ، فيحرسها ويفار عليها كما في مسرحية ( التراب ) للدكتور أبو العيد دودو ، أو يسمح لنفسه باختلاس لحظات جنسية على حساب المعركة كما في ( الطموح ) لعرعار ، ويكاد يمنعها حتى من معالجة المرضى ... وفي « سماء سماقية » « Ciel de porphyre » لعائشة لمسين تتطوع حورية « لخدمة » المجاهدين مجانا وتضع جسدها تحت تصرف الثورة حتى يوم الاستقلال !! .

أما إذا كانت تلك المرأة زميلة في العمل ... أو تحت مسؤولية أحد كبار الموظفين ، فالرجل يعتبرها هنا تحت تصرفه الشخصي ، وهو لا يتسورع عن اغتصاب عشرات الفتيات كما جاء على لسان كمال في ( الشمس تشرق على الجميع ) عندما أخبر صديقه ان أحد مديري المعامل قد اغتصب عشر فتيات يشتغلن عنده في المصنع ... وفي القصة نفسها يغتصب ناظر الثانوية عددا لا يقل عن ذلك من فتيات الثانوية ..

وهذا الاستغلال نفسه تتعرض له المرأة من طرف الرجل المسؤول عنها ... كلما سمحت الفرصة بذلك ، مثلما نجد في كثير من قصص الطاهر وطار « كالطاحونة » و « رقصات الاسى » و « الضابط والزنجية » .

وهكذا فان ضعف الرجل أمام المرأة ، وشعوره بالحاجة اليها ، دون ادراك الطريق الذي يجب أن يسلكه للوصول الى حاجته ، يدفعه الى أن يكون عنيفا معها حتى لا يبدو مرتبكا أمامها . ولقد شرح محمد ديب هذه الظاهرة عندما صرح في احدي مقابلاته :

« ان المأساة هي تحول الرجل أمام المرأة الى صنم ابكم معطوب من الناحية العاطفية . انه ينظر اليها ككائن يبدده ويسحره أيضا ، وكتعويض عن شعوره هذا فهو ينقلب الى مظاهر الرجولة العدائية .. والواقع ان هذا الرجل « مريض » ، والا فكيف يمكن لهذا الرجل ان يتصرف مع كائن غريب لم يحدث في يوم أن تعرف عليه عن قرب ؟ » .

ان مشكل انقطاع الحوار بين الجنسين بل وانقطاع التعارف بينهما يشكل أهم مشكل اجتماعي تقف خلفه كل ههوما النفسية والاجتماعية والادبية .

ويمكن لهذا الموضوع وحده أن يثلا أكثر من كتاب . ذلك انه لم يوجد كاتب جزائري واحد لم يتوقف عند هذا الموضوع أو يلمح اليه .

في أول كتاب لمولود معمري ( الهضبة المنسوبة ) الذي صدر سنة ١٩٥٢ وردت هذه الجملة :

« ان عالم الرجال وعالم النساء في تقاليدنا هما كالشمس والقمر ، قد يريان بعضهما كل يوم ولكنهما لا يلتقيان » .

وفي كتاب ( عيد الميلاد ) « Lanniver saire » لمولود فرعون نجد ضمن مذكرات شخصية كتبها سنة ١٩٤٤ ( ونشرت سنة ١٩٧٢ ) هذه الحقيقة نفسها عندما يقول :

« من الخامسة عشرة الى سن العشرين يمثل الاولاد والبنات نوعين من البشر يعيشان جنبا الى جنب ولكنهما مرغمان على التجاهل المتبادل . ليس بينهما أبة علاقة ، فهما ينظران الى بعضهما دون أن يتحدث أحدهما للآخر ، ويشتهيان بعضهما دون أن يلمس أحدهما الآخر » .

أتمنى أن أنام الى جانبك بلا قلق  
أعانق جسدك بلا ذل قديم  
( ..... )

أتمنى أن تنزع يدك المسامير التي غرست فيّ .

ان هذه الغربة التي يعاني منها شبابنا تجاه المرأة ..  
وكل العقد والافكار المسبقة التي امتلات بها رؤوس  
الرجال .. هي التي جعلت المعلم الشاب في ( ربح  
الجنوب ) لبن هدومة يقع في غرام نفيسة وهو لم يرها  
ولم يعرفها بل عشقها من خلال أخيها الصغير الذي  
يدرس عنده في الصف . وفي القصة نفسها نرى الراعي  
يفسر طلب نفيسة له بارسال خطاب الى العاصمة على  
انه دعوة علنية للجنس ، فلا يتورع في الليلة نفسها من  
التسلل حتى غرفتها وهو يعتقد ان كل شيء قد أصبح  
ممكنا . وهكذا يتساوى المثقف بالجاهل عندما يتعلق  
الامر بالمرأة ...

والمهم في هذا الموضوع ليس ما كتب في الادب  
الجزائري عن ظاهرة « انقطاع الحوار بين الجنسين » انما  
الاهم هو تأثير هذه الظاهرة على الادب الجزائري  
نفسه ، وخاصة على الرواية المكتوبة باللغة العربية ،  
والتي كان غياب المرأة أحد أسباب تخلفها الزمني  
والنوعي .

ان جهل الرجل الجزائري لعالم المرأة وارتباط  
هذه المرأة في ذهن بعض الكتاب المعريين بثاوث مقدس  
هو ( الدين ، اللغة والمرأة ) جعل هذه المرأة كثيرا ما تبدو  
في خيالهم كما في كتاباتهم شيئا خرافيا أسطوريا ..  
مما جعلهم يعجزون عن تقديم صورة واقعية لهذه المرأة .  
وهم أكثر من ذلك عاجزون حتى في القصة على اقامة  
علاقة طبيعية معها ، حيث نجد حوار الرجل مع المرأة  
مثلا حوارا مصطنعا ومبالغا فيه ، وحيث يتطرف الرجل  
في احكامه وأوصافه تجاه المرأة بطريقة تفضح ارتباك  
أمامها . فهو اما مادح لها حتى التقديس ، او شاتم لها  
حتى التدنيس . وأصدق نموذج على ذلك رواية  
الدكتور عبد المالك مرتاض ( نار ونور ) التي ضخم فيها  
الكاتب الاحداث والاشخاص بطريقة جعلت تسمية هذا  
الانتاج رواية تجاوزا .

والا كيف يمكن تصور بطلة تتحدث لابن عمها  
بهذه الطريقة :

« أريد أن أكون جزائرية ، تبعث الامل في نفوس  
الشباب ، وتنشر الحب في قلوب المواطنين والناس  
جميعا . أريد أن أكون جزائرية تغني للحياة أفرانها ،  
وتستقبل الصباح باسمه ( ..... ) .

اني انا الجزائرية التي اذا اشتهيت عفت ، واذا  
أهنت استأسدت ، واذا أكرمت ودعت ، واذا غضبت  
كظمت غيظي ، واذا ثرت ملكت نفسي ، واذا جمعت لم  
أكل بشدي ، واذا امتحنت صنت عرضي ..

ان هذا الموضوع توقف عنده كتاب العربية .. قبل  
كتاب الفرنسية منذ الربع الاول لهذا القرن ، كما هو  
الامر عند الشاعر محمد صالح حشاش سنة ١٩٢٥ ،  
وكذلك رمضان حمود في الفترة نفسها في كتابه ( بدور  
الحياة ) . ثم جاء محمود العابد الجليلي في سنة ١٩٣٥  
ليضع في مجموعته القصصية التي نشرت في تلك السنة  
بمجلة « الشهاب » عدة مقاطع تلمح علنا الى ضرورة  
خلق لقاء بين جنسين يعيشان في غربة تامة وعدم انتظار  
فرصة الزواج لوضع غربيين وجها لوجه دون مراعاة  
لاختلاف مزاجهما وطباعهما .

أربعون سنة بعد هذا الكلام لا زال هذا المشكل  
نفسه قائما ، ان هو لم يتازم أكثر مع اندلاع الحرب  
التحريرية التي جعلت علاقة الرجل بالمرأة تتعقد أكثر  
بعد أن وضعت الثورة أمامه تلك المرأة التي حجت عنه  
قرونا ، فارضة عليه هذه المرة مواصلة كبتة الجنسي .

واذا كان بعض الرجال قد تغلبت عليهم مسؤولياتهم  
ولم ينقادوا الى شهواتهم ، فان كثيرا من الذين وجدوا  
أنفسهم لأول مرة أمام امرأة من لحم ودم لم يستطيعوا  
مقاومة غرائزهم واغتصبوا تلك المرأة .. والادب  
الجزائري لا يخلو من هذه الحالات ( التي ذكرنا بعضها  
سابقا ) .

ان احداث الثورة آنذاك شغلت الناس عن الاهتمام  
بتلك اللحظة الحاسمة التي تم فيها أول لقاء حر بين  
جنسين باعدت بينهما قرون من التقاليد .

ولكننا اليوم وبعد مرور ست عشرة سنة على  
تاريخ استقلالنا يمكننا ان نرى نتائج تلك التجربة من  
خلال الادب الجزائري الذي لم يتغير فيه شيء بالنسبة  
لهذا الموضوع . لا بل تعقدت فيه المأساة أكثر بعدما  
أصبح الرجل اليوم يملك الوقت الكافي لادراك مأزقه  
النفسي والتاريخي .. وان أدق تعبير في هذا المجال  
هو ما كتبه الشعراء الشباب باللغة الفرنسية والذين  
يشكلون تيارا خاصا داخل الادب الجزائري ، تيارا  
تنجسد فيه معاناة الشباب الجزائري ، أمام ارث  
اجتماعي ثقيل تسد أمام جيلنا كل جسور الفرحة ..  
والتوازن .

في قصيدة لبشير الحاج علي ( أحلام في الفوضى )  
جاءت في ديوانه ( لتبقى الفرحة ) ، الذي ظهر سنة  
١٩٦٥ ، يمكننا ان نقرأ هذا المقطع :

أحلم بخطيبين متحررين من الافكار السرية  
أحلم بزوجين منسجمين بتفاهم  
أحلم برجال متزئنين في حضور المرأة  
أحلم بامرأة منسرحة في حضور الرجل .

وتعود هذه الفكرة نفسها عند يوسف سبتي في  
ديوانه ( الامل اليأس ) :

الدرس مثلا : فماذا يفعل الثاني آنذاك ؟ .. تجيبه طيبة  
باللهجة نفسها :

« فليكن الاستاذ المعيد مطمئنا . سيبحث كل واحد  
منا عن الآخر . الى ان يجده .. ولن يفعل شيئا قبل  
هذا » ..

ان هذه اللهجة وهذه التصرفات لم أعدها لذي  
فتياتنا الجامعيات .. الا اذا تغيرت الجامعة مند  
سنتين ..

وهذه الصورة المهترزة والمضطربة نفسها نجدها في  
قصة ( الشمس تشرق على الجميع ) لاسماعيل عمومات،  
حيث يعيش ابطال بين زميلتين في الثانوية ، احدهما  
عتيقة للناظر ، والثانية يحبها ويشك في علاقتها  
بالناظر نفسه . وهنا يرتبك الكاتب وهو ينقل لنا  
سوره هاتين الفتاتين ويجهد نفسه ليجد حوارا طبيعيا  
يمكن ان يدور بين البطل وبينهما ، بينما يأخذ نبرة ثابتة  
عندما يحول حديثه الى أخته وامه اللتين تشتغلان ليتمكن  
من مواصلة دراسته . ولا نجب ان تكون هذه المقاطع  
بالدات هي اجمل فقرات الكتاب وأكثرها تأثيرا لاننا  
نعرف انها جزءا من واقع تعيشه كثير من زوجات  
الشهداء وبناتهن .

ان هذه الامثلة الكثيرة تعطي من ناحية ثانية قيمة  
اخرى لرواية ( ربح الجنوب ) لابن هدوفة التي تعتبر  
اول رواية جزائرية ( باللغة العربية ) عالجت مشكلة  
الفتاة الجزائرية المثقفة بواقعية نادرة ، وأوضح  
الاصطدام الفكري بين هذه الفتاة وجذورها الريفية .  
ان ابن هدوفة في هذه الرواية وضع المرأة في اطار  
جديد لم تعرفه الرواية المكتوبة باللغة العربية قبله عندما  
طرح مشكلة ( نفيسة ) على المستوى نفسه الذي طرحت  
به الثورة الزراعية . وليس صدفة ان يكون سادة الارض  
هم ايضا سادة المرأة . ويوضح لنا الكاتب ان الرجل  
امام الملكيتين يختار الارض ولا يتردد في التضحية بالمرأة  
من أجل الحفاظ على أرضه . وليس صدفة ايضا ان تعني  
نفيسة وضعها كفتاة ضعيفة ومستغلة في الوقت الذي  
يكشف فيه راعي أبيها الاستغلال والاهانة التي تتعرض  
لها . وتلتقي ثورة البطالين عندما يصادف هروب  
نفيسة من بيت أهلها مع تخلي الراعي عن وظيفته .

ان هذا المحور الثلاثي الذي بنيت عليه القصة جعل  
العلاقة بين الرجل والمرأة والارض علاقة عضوية لا يمكن  
فيها لاي طرف ان يحل مشكلته بمعزل عن الطرفين  
الآخرين .

وهكذا مرة اخرى تتدخل الصدفة أو منطبة  
الاشياء لتجعل الراعي هو المنقذ لنفيسة عندما لدغتها  
الانعى وهي تحاول الهروب ، وهو ايضا الذي سيحميها  
ويخفيها في بيته موحدا بذلك نضال المرأة والفلاح  
المحتكر ضد سلطة الوالد واقطاع المالك .

أي فتاة في الدنيا لها سمعتي : دفاع عن وطن .  
وصون لشرف ، ورعاية لزوج ، وبرّ بوالد ، وحنو  
على ولد » .

ان الدكتور مرتاض الذي اعتقد عن حسن نية ،  
انه يخدم المرأة الجزائرية بحشده كل هذه الصور  
والتعبيرات النادرة ، نسي في غمرة حماسه ان معظم  
الصفات التي خص بها المرأة الجزائرية - دون غيرها من  
نساء العالم ، هي عيوب لن تقبل بها أية امرأة عاقلة  
في العالم ...

والا ما معنى مثلا « اذا غضبت كظمت غيظي ، واذا  
نرت منك نفسي .. » ؟ الا ان الدكتور مرتاض . يمجّد  
خضوع المرأة وذليها .. ويمجّد فيها هذا الصبر الذي  
يجعلها امرأة مسن ثلج .. لا ثور ، ولا تغضب ، ولا  
تستهي ؟!

وفي الطرف الآخر نجد مثلا في اول مجموعة  
قصصية للطاهر وطار ( دخان من قلبي ) نماذج من  
البطلات المتحررات تطرف الكاتب في وصفهن ايضا ،  
خاصة انه حاول ان ينقل لنا جوا متحررا ، ربما كان  
جديدا عليه ، مما جعل كثيرا من تصرفات بطلاته غير  
طبيعي ، ومبالغا فيه ، بينما نجده في قصة ( نوة )  
مثلا ، والصادرة في الكتاب نفسه ، اكثر ادراكا وتحسنا  
للمرأة ، لانه كان يكتب عن عالم يعرفه جيدا وعن امرأة  
ريفية احتك بها .

ونستطيع هنا ان نصل الى ملاحظة هامة وهي ان  
الكتاب الجزائريين عاجزون في رواياتهم عن اقامة علاقة  
مع امرأة مثقفة او متحررة . فكثيرا ما يعجز الكاتب عن  
السيطرة على بطلته فيستنجد بخياله ، وهنا تحصل  
المبالغات والمواقف المزيفة .

في رواية « الطموح » مثلا نجد النقاش الذي ووط  
فيه محمد العالي عرعار زوجة الاستاذ التي اراد ان تكون  
مثقفة ومطلعة حوارا مصطنعا لم ينقل لنا غير سطحية  
هذه المرأة وفضولها امام ما يقوله هذا التلميذ ( النابغة ) .  
وعندما ينتقل القاص الى زميلة في الجامعة ( طيبة )  
ويصف علاقته بها فهو يفاجئنا بمواقف وتصرفات لم  
نعدها من فتاة جامعية مهما كان مستوى تحررها .  
فالبطلة هنا مثلا تمسك « خليفة من يده وتقوده خارج  
الجامعة ولا تتورع عن استضافته في بيتها ليتناول الغداء  
مع أهلها . وعندما يسألها الاستاذ في احدى المرات عن  
أوراقها فهي تجيبه بوقاحة انها تتقاسم مع خليفة  
كل شيء :

« ان لدينا المحفظة نفسها . أوراقها هي أوراقه .  
وأوراقه هي أوراقها » .

وعندما ينهبها الاستاذ لمساوىء هذه الطريقة ،  
وقد يمكن الا يجلس أحدهما مع الآخر أو يتأخر عن

وطار قصة فتاه دفعها ففرها الى العهر . وتطول القصة وتنشعب . وتنقي هذه الفتاة مع أحد « الثوار » اثناء حرب التحرير فيعطف عليها ويعلمها القراءة والكتابة ، وبعض المهن البسيطة . لينفذها من ماساتها ، وتحمس رمانه وتعمل مع الفدائي لمساعدة الثورة ، وعندما يستشهد ذلك المجاهد نفاجا برمانه « جالسة على كرسي وثير ، عارية الصدر ، لا يغطي بساقي جسمها سوى قميص نوم حريري املس شفاف » وهي تتمم : « هذا التاجر اتناه اشتراني . وضعني هنا في منزله كما يضع اية تحفة ! » .

هكذا تنتهي قصة رمانه بعد ما يقارب المائة صفحة من الماسي والعداب المتتالي . فكان وطار يحاول اقناعنا ان المرأة خلقت عاهرة ، فلا الثورة ولا التعليم ينفعان في تغييرها . وتؤكد هذه الصورة في قصته ( الشاعر الصغير والرسام الكبير ) عندما يصف لنا فتاة « مثقفة » نقضي وقتها متنقلة بين المراقص والحانات محرصة الرجال على تناول الخمر صباحا « حتى يظلموا جامدي العواطف مع المرأة ويقدرها على مغالبتها ومعاشرتها » . وهي لا تنتظر ان يقابلها الرجال . فهي تأخذ دائما المبادرة في عرض جسدها وكذلك شعرها لمن شاء ..

وفي هذه القصة يبدو العهر الجنسي لدى المرأة مرتبطا بالعهر الادبي عندما تكون هذه المرأة شاعرة . وهكذا فان المثقفة عند وطار تصبح اقل شانا حتى من الجارية . فحتى الثقافة التي هي سلاح المرأة الاول ... تتحول في يد بطلات وطار الى سلعة تماما كاجسادهن . ونجد الصورة المسطحة والمبالغ فيها ايضا في قصة « زوجة الشاعر » .

عندما يحاول وطار بعد ذلك في قصته الشهيرة « الزنجية والضابط » ان يحزر المرأة من سيطرة الضابط ليجعلها عبدة في يدي الصحفي الذي تصر هي هذه المرة على معاشرته ، لا تتورع الزنجية « المثقفة » و « الشاعرة » عن تقبيل الصحفي واحتضانه في السيارة امام الركابين . وتنتهي القصة والزنجية « فوق اريكة على السرير ، في ثياب نوم بيضاء ، ترتل مغمضة العينين والصحفي عند قدميها يتربع على سجادة فوق الارض وينهمك في الكتابة » ..

رغم الرمز الذي حاول وطار التلميح اليه فانه سيصعب عليه اقناع أي قارئ ان حل هذا اللغز كان يتطلب وجود الزنجية في منتصف الليل ... في غرفة الصحفي في أحد الفنادق ... وجلسها بثياب النوم على السرير ... لتقرأ له شعرا !



وإذا أردنا أن نلخص اهتمامات الادب الجزائري المكتوب باللغة العربية بالمرأة فاننا يمكن أن نقول

وإذا فشلت نفيسه في محاولة هروبها في المرتين فذلك لانها لم تع - رغم ثقافتها - جدلية هذه العلاقة . وهي لم تحاول مرة واحدة ادراك السبب الذي جعل اباهما يضحى باخنها منذ سنوات وبها اليوم . ان نفيسه لا علاقة لها بالارض اطلاقا . وهي لا تتحدث عن قريتها الا لتذكر عيوبها . وهي بالتالي لا يهمنها ان يكون ابوها مالكا ... أو الراعي محتكرا ، أو تكون الارض في يد ابها أو في يد غيره . كل ما تريده نفيسه هو حل مشكلتها الشخصية . اما ( صالح ) فهو في نظرها ( راع قدر ... ) .

ان غياب الوعي الطبقي لدى نفيسه وعدم ادراكها لمعطيات الثورة التي تستطيع وحدها حل مشاكل الجميع جعل نفيسه في نظر الكاتب لا تستحق حتى ان تنجح في محاولة هروبها .

« لان هروب نفيسه ليس هو الحل » كما صرح بذلك ابن هدوفه في احدي المقابلات .

الى جانب هذه الوظيفة الجديدة التي منحها ابن هدوفة للمرأة . نجد ان اهم حدث آخر في هذا الكتاب هو دخول جسد المرأة لأول مرة الادب الجزائري العربي . فنفيسه هي أول فتاة جزائرية يعترف لها كاتب ( معرب ) بحق امتلاك جسد دون ان يحاول تدنيس هذا الجسد أو استغلاله لاثارة شهوات قارئ يعوض عن جوعه الجنسي بمثل هذه المطامع . ان جسد المرأة الجزائرية قبل نفيسه لم يكن جسدا انسانيا يحمل الشهوة والرغبة والثورة ، بل كان دائما عالما يحرم الدخول اليه والتعرض لمشاكله . بينما يجوز ويحبذ التغزل فيه . ولهذا يحدث أن نجده حاضرا في الشعر . ولكنه غائب وخيالي في القصة .

وإذا كان الفضل للقاص الكبير الطاهر وطار في ادخال جسد المرأة الى القصة الجزائرية ، فان هذا الدخول كان دائما على اطراف الاصابع ، بل كثيرا ما أساء وطار الى هذا الجسد بطريقة ربما لم يقصد اليها ، ولكنها رسخت في ذهن القارئ فكرة ( المرأة السلعة ) . فالطاهر وطار منذ كتابه الاول ( دخان من قلبي ) الذي نجد فيه عدة نماذج لنساء بعضهن عاهرات وبعضهن « متحررات » ، وحتى كتاباته الاخيرة ، قلما نجد فيها التفاتة شجاعة وايجابية كتلك التي تعود ان يقفها في مجالات أخرى .. لم يجرؤ على دخولها غيره ...

وإذا كان محتوى بعض القصص ايجابيا كما في « رقصات الاسى » حيث ترفض راقصة أن تحصل على جائزة للرقص بخيانة زوجها مع منظم المسابقة ، فان وطار في القصة نفسها يسرد لنا حكاية أربع نساء عشقن ( الكامل ) « القصاب » ومزقن ثيابهن امامه شهوة واعجابا ، مما جعل الاعراس تتحول الى ماتم بتدخل أخ لفتاة أو زوجها . وفي « رمانه » يروي لنا

— بدهشة — ان أهم فترة طرحت فيها مشاكل المرأة بجدية وبجراحة هي الفترة ما بين ١٩٢٥ الى ١٩٥٥ .

فلقد كان رمضان حمود ومحمد صالح خيشاش ومحمد السنوسي في بداية هذا القرن أجرا من شعراء العربية المعاصرين عندما طالبوا بنزع الحجاب عن المرأة ومنحها حق متابعة التعليم . . . وتحريرها من عبودية الرجل لها باسم الدين بينما نجد مكان المرأة في القصيدة الجزائرية بعدهم فارغا لا يحمل اية قضية ولا حتى صورة ايجابية أو واقعية للمرأة . ذلك ان الشاعر لا يزيد على اعادة كليشيهات قديمة تشكل رصيد المرأة في الشعر العربي . وعندما يحاول ربط المرأة بالثورة فان القصيدة كثيرا ما تأتي ساذجة وسطحية لا تحرك في القارئ اية عاطفة الا في حالات نادرة . . مثل بعض القصائد للدكتور أبو القاسم سعد الله : أو قصيدة « نداء الضمير » للدكتور صالح خرفي . واذا عرفنا ازدواجية بعض شعرائنا الذين يعيشون بين هواجسهم الجنسية ومظاهرهم التقدمية ، فاننا ندرك السبب الذي جعل الشعر الجزائري المكتوب بالعربية هو اضعف نوع أدبي اهتم بالمرأة ( وهو أيضا آخر نوع أدبي يأتي من حيث النوعية بالقياس لباقي الانواع الادبية ) . وقد تكون نجاة هذا الشعر ، على يد بعض الاصوات الشابة ، التي تجرات على ادخال مضامين جديدة الى القصيدة الجزائرية . . ولكن حتى هذه الاصوات القليلة تبقى متأخرة وتبدو غير واقعية اذا قيست بما يكتبه الشباب باللغة الفرنسية . . وربما يعود العيب الاول للغموض الذي يتصور بعض الشباب انه أهم ميزة يمكن ان تتمتع بها قصائدهم ، مما يجعلهم يعتمدون عن طرح المواضيع ومواجهتها بصراحة . . بينما يذهب شعراء الفرنسية الى أهدافهم دون لف ولا دوران . . وبمفردات كثيرا ما تكون مأخوذة من شوارع القصة ومن أحيانا الشعبوية ، فتأتي قصائدهم أقرب الى القارئ : وأصدق تجاه القضايا التي تعالجها ، ما عدا المآخذ اللغوي عليها بالطبع !

واذا توقفنا قليلا عند النشر فاننا نجد قضية المرأة قد خمدت وانتهت مع انتهاء ( البصائر ) واستشهاد رضا حوحو سنة ١٩٥٥ : بعد أن عرفت أوجها على أيام الامام ابن باديس والكتاب الذين عاصروه .

وهكذا فان ظهور ( ربيع الجنوب ) سنة ١٩٧٢ يشكل أول دخول جدي للمرأة في الادب الجزائري العربي . واثناء فترة الصمت هذه بين الخمسينات والسبعينات . كان الادب المغربي الذي صادف ظهوره مع انتهاء المرحلة الاولى من الادب الجزائري هو وحده سيد الموقف . والحقيقة ان هذا الادب الذي يحاول البعض — عن جهل — الحط من قيمته والتشكيك في نواياه . قد قدم الادب الجزائري خدمة لا تقدر بنقله للعالم هموم الانسان

الجزائري — ثورته وأحلامه — وفتح ابواب العالمية امام ادبنا الذي كان يمكن بدونه ان يبقى مغلقا لزمان طويل .

وهكذا فان الادب الفرنسي هو الذي قدم لنا اصدق صورة عن المرأة الجزائرية وهو الذي تابع جميع تطوراتها . عبر المراحل التاريخية الحديثة . واذا كان الكاتب الفرنسي قد عانى مثل اخيه العرب من كل الضغوط والرواسب النفسية والاجتماعية ، فلقد عرف كيف يجند حساسيته وموهبته في شرح ابعاد مأساة المرأة والرجل في المجتمع الجزائري . ولقد ساعده على ذلك تحرره من القيد اللغوي ، ودخوله لغة مباحة . ويطول الحديث لو اردنا ان نقيم الخدمات التي قدمتها كل رواية . للقاصة الكبيرة آسيا جبار مثلا . . أو ما قدمه مالك حداد في كل كتاباته — دون استثناء — للمرأة الجزائرية ، وهو الذي حمل دائما المرأة الجزائرية في قلبه واعماله : والسذي ترك لها دستورا يحميها من السقوط . . في الحياة التقليدية أو الهروب الى الحياة الغربية في قصته الرائعة ( التلميذ والدرس ) .

ولا ننسى مولود فرعون ، ذلك العبقرى الذي لف نحت برنسه كل معاناة الانسان الجزائري ، وظل لآخر لحظات حياته يكتب من أجل المرأة . . والرجل الجديد .

أو كاتب ياسين الذي كان أول كاتب ربط المرأة بالتاريخ في ( الاجداد يزدادون ضراوة ) وقام بأجرا محاوله لينتزعها من مخالب الاجداد وليجعلها ترمي حليتها ( وليس فقط حجابها ) وتتبع الثوار .

ان الادب الجزائري لا يخلو من المواقف المشرفة والشجاعة التي لا بد أن تكون مفخرتنا جميعا . واذا كان الادب الجزائري المكتوب بالفرنسية سابقا حتى الآن في طرح موضوع المرأة طرحا موضوعيا وصريحا ، فاننا لا نشك لحظة واحدة بأن مستقبل الادب في الجزائر مرتبط أشد الارتباط بالقدرة على خلق وتطوير ادب عربي حديث تقدمي يكون منفتحاً على كل قضايا المجتمع والانسان الجزائري وعلى رأسها قضية المرأة ، وبذلك يتخلص هذا الادب من عقده ونواقصه السابقة (٥) .

باديس

( ٥ ) أقيمت هذه الدراسة مؤخرا فسي الندوة الاسبوعية التي يعقدها البروفيسور جاك بيرك في « الكوليج دو فرانس » ، وهي تشكل فصلا من أطروحة الدكتوراه التي تعدها الكاتبة في جامعة السوربون تحت اشراف الاستاذ نفسه . وتستصدر هذه الدراسة في وقت لاحق باللغتين العربية والفرنسية .